

عبد الرؤوف سنو المؤرخ: الانتماء والتفرد

بقلم د. أنطوان سيف

من الصدف السعيدة، والبعض يحصرها من الأفراد وينكرها على الجماعات بحتمية صارمة، انعطاف عبد الرؤوف سنو باتجاه تخصصي نادر وغير منمط صوب ألمانيا في دراساته العليا أولاً في جامعة كاسل ومن ثم للدكتوراه في جامعة برلين الحرّة التي ولمحض الصدفة أيضاً أتعاون مع بعض المنارات الفكرية من أساتذتها في قسم "الأنثروبولوجيا التاريخية" في تنظيم مؤتمرات دراسية أرومتوسطية جعل ما ألقته لا نشرة له إلا باللغة الألمانية فحسب، اللغة التي وضع بها المكرّم العديد من مؤلفاته بدءاً من أطروحته في الجامعة المذكورة، وذات العنوان والموضوع الألماني أيضاً "المصالح الألمانية في سورية وفلسطين 1840-1898". وفي هذا المناخ الثقافي الجرمانى، الذي لم يعاشره أكثر من سواه في دراساته المدرسية والجامعية الأولى في مدينته بيروت، غدا سنو مندوباً غير معطن بهذه الصفة الرسمية في تجسير العلائق بين ألمانيا من جهة وكل من السياسة العثمانية والعربية، والإسلام، والشرق عموماً على خلفية الفرضية، التي باتت على طول المراس والمعالجة قيمة حدثية، هي التسامح الديني الذي على ضوئه أيضاً قرأ الفتوحات العربية القديمة، وانسلّ منه، كما تقتضي طبيعة الأمور، إلى حوار الحضارات في هذا الجانب المخصص منها الذي سكب فيه وباللغات الثلاث الألمانية والعربية والانكليزية مختلف مقارباته التاريخية التي تتأطر على الخصوص ضمن دائرة القرنين الأخيرين. أطروحته في جامعة بيروت العربية: "أثر الفكر الأوروبي في حركة الإصلاح في الدولة العثمانية 1789 – 1839" لعبت دور مقفزة لاهتماماته المخصصة اللاحقة التي يبدو فيها الدكتور عبد الرؤوف وكأنه لا ينافس أحداً من زملائه المؤرخين اللبنانيين، باستثناء ذاته.

التعليم هو "مهنة المؤرخ"، كما صاغت العبارة مدرسة الحوليات التاريخية الفرنسية التي أسسها مارك بلوخ مع لوسيان فيفر عام 1929. ألا أن الإرث الألماني في التأريخ الحديث Historiographia كان أساسياً وتأسيسياً، في أوروبا ومن ثم عالمياً، في القرن التاسع عشر مع ليوبولد فون رانكه، وفيلهم روزر مؤسس التأريخ الاقتصادي، وياكوب بوركهارت، تلميذ رانكه وصديق الفيلسوف نيتشه، مؤسس ما بات يُعرف بالتاريخ الثقافي، الذي أقام علاقة معرفية جدلية مع علم الأنثروبولوجيا الطبيعية والثقافية خصوصاً المتزامن مع هذه النهضة التاريخية الجديدة. لقد عايش د. عبد الرؤوف إرث هذه المدارس الكبرى وتفاعلاته الحديثة، في عقد دارها، وعاد إلى وطنه لينخرط في همومه التعليمية والبحثية والحوارية، ويقدم نماذج ومقاربات فيها الكثير من إعادة النظر وبخاصة إعادة التثمين على ضوء القيم الحديثة، محاضراً، محاوراً، باحثاً، منسقاً لمناهج جديدة مراقباً دولياً (لانتخابات وديمقراطيتها في ألمانيا لا في لبنان!) مستشاراً تربوياً...

في خضم كل هذه الأنشطة التي وثّقها واحداً واحداً وملأت ست عشرة صفحة من الكتاب الذي تصدره حركتنا سنوياً بمناسبة تكريمها أعلام الثقافة في لبنان والعالم العربية الذي عبد الرؤوف سنو واحدٌ من رعيهم السابع والعشرين، أشير أخيراً إلى انتماءين معرفيين علميين له، وإلى ملاحظة شخصية:

يندرج سنو في عداد مؤرخين ما أسماه بروديل المرحلة الثانية من مراحل الثلاث، أو كما يقول بروديل الطوابق الثلاثة، أي تاريخ الدول (ومن ضمنه التاريخ الدبلوماسي والوثائق الرسمية الورقية تقليدياً والالكترونية (الويكيليكسية) راهناً والتي ربما لم يدخلها بعد؟) وتاريخ الجماعات والمجموعات (كتاريخه عائلة آل سنو ومثلاً هذا تاريخ اجتماعي يقاس بالعقود (Décennal).

أما حدوده العليا تاريخ الأمد الطويلة (Longue durée) وهو شبه جامد لا يتحرك إلا بالقرون تاريخ الحضارات التي سماها شينغلر "الثقافات" وحدوده السفلى، القصيرة الأمد على قياس عمر الأفراد، كالحكام وحتى الحكومات والشخصيات العامة المميزة، فهاتان لم يمارسهما سنو إلا لماماً في السفلى تحديداً.

وانتماؤه الثاني هو انتماؤه إلى ما أسماه "مدرسة التاريخ اللبنانية" التي وضع بعض ملامحها أحمد بيضون في كتابه / الأطروحة الصراع على تاريخ لبنان حيث المؤرخون اللبنانيون، بعد استقرار الكيان اللبناني على لا بدائل له من وعيهم، أقله على المدى القصير وحتى المتوسط الأمد، باتوا – على اختلاف إيديولوجياتهم ومطامحهم العامة – ذوي حساب فائقة للانتماءات الاجتماعية ما دون الوطنية الكيانية، أو القومية الطارحة بقوة وبتحدٍ (بالمعنى التوينبي الاجتماعي للعبارة) جدلية الانقسام / والوحدة الوطنية. وتفهم المرحلة الأنية الطوائفية الممتدة، والتوقف ملياً في معالجتها ودرء التعامل الإيديولوجي المجافي للعلمية معها. ولا داعي هنا للتسمية بالأسماء عديدة ويمكن تلمس فرضية وجود هذه المدرسة اللبنانية في التاريخ عند غالبيتهم وفي أكثر من مجال.

أما الملاحظة الشخصية الأخيرة فتعود إلى مرحلة سابقة لمعرفتي بالدكتور سنو حينما تلقيت مرة مخابرة تلفونية من المرحوم المؤرخ الدكتور منير إسماعيل يقول لي بشيء من الفرح: لك معجب جديد هام جداً من جماعة مؤرخينا الواعدين هو الدكتور عبد الرؤوف سنو، الذي أتصل بي وكأنه يعلمني بما لا أعلم أنه وقع على بحث لافت جداً حول شقيقك المؤرخ عادل إسماعيل صاحبه هو أنطوان سيف، فهل تعرفه؟ والتممة معروفة... وهي مغبطة لي ومؤسسة لصداقة السمع والقراءة السابقين للبصر والمحادثة المباشرة.

أما بعد، فبعد الرؤوف سنو الوديع القلب، والفائض مودة والمجافي للسلبيات الحادة بالتعاطي والرفقة والتصادق، المتواضع بسلوكه، الزوج والأب الحنون على عائلته حسام وسمر، هو أيضاً الباحث المؤرخ المجسّر لعلاقات متينة مع إحدى أهم الثقافات الإنسانية، الألمانية، هو الذي نعتز بتكريمه.